



منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببنج مالا

سلسلة ندوات ومناقشات رقم 16

التصوف التبادلي في العصر الحديث عصر الأوج والقوة

- أعمال ندوة: «التصوف التبادلي في العصر الحديث: عصر الشبوح الكبار»
- أعمال المائدة المنهجية: «مسألة المنهج في دراسة تاريخ ونراث جبهة بنج مالا / جينيفر»

تتبع: الدكتور محمد حقي
الدكتور الكهن عماد

مطبعة وورث بيزو Work Bureau

بنج مالا 2018

العنوان: التصوف التادلي في العصر الحديث: عصر الأوج والقوة
المنسق: الدكتور محمد حقي والدكتور الحسين عماري
السلسلة: ندوات ومناظرات رقم: 16
ردم ISSN: 2458-6846
الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال
المطبعة: مطبعة وورك بيرو work bureau
المدينة: بني ملال
السنة: 2018 (الطبعة الأولى)
رقم الأيداع القانوني (D.L.): 2018M02522.
رقم التسلسل الدولي للكتب (ردمك ISBN): 978-9981-875-10-4.

إهداء

إلى أجدادي آل عبد القادر العسول العلماء
إلى جدي المرابط الحسن بن علي بن العربي رجل
المواقف والمهام الصعبة

اللجنة العلمية:

المصنفون محمد تقي
المصنفون الكهين عماد
المصنفون عبد الرزاق أبو الصير
المصنفون الكهن بوهرقا
المصنفون العربي العميري

اللجنة التنظيمية:

المصنفون محمد تقي
المصنفون الكهين عماد
المصنفون عبد الرزاق أبو الصير
المصنفون الكهن بوهرقا
المصنفون العربي العميري
الاسنان عبد الإله الهاشمي

المكان المقدس

بين جاذبتي الصوفي والاجتماعي

الدكتور محمد حقي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال

المكان المقدس مكان يحمل قدسية عند السكان لارتباطه بشيء مقدس فهو بذلك تجسيد مجالي لهذا المقدس حتى يظهر للعيان¹. ويرتكز البحث في الموضوع على عمل ميداني دام لحوالي عقد من الزمان، ونشأت فكرته من شيين اثنين، أولهما اهتمامنا بالمقدس والتاريخ الديني والفضول الذي تولده فينا كل إشارة إليه مهما كانت بسيطة أو حتى تافهة، وثانيهما ما لاحظناه من كثرة الأماكن التي يبجلها الناس في المنطقة داخل المدن والبراري على حد سواء. وشمل اهتمامنا أقاليم بني ملال والفيق بن صالح وأزيلال التي توافق مجال جهة تادلة/ أزيلال سابقا. وقد عملنا على توفير بعض الشروط لنجاح العمل فوجهنا طلبتنا في مشاريع نهاية دراستهم نحو الاشتغال على هذا الموضوع وفعلا نجح كثير منهم في إنجاز أعمال أولية وفرت بعض المادة للبحث، وخلقنا بنية للبحث "التدين في جهة تادلة/ أزيلال" لتأطير العمل وتوفير بعض شروطه، كما قمنا بإنجاز بعض البحوث الجزئية تهم مكانا مقدسا بعينه وهنا نستشهد بمقال "المكان المقدس بين المقاومة والتطور" الذي خصصناه لعين أيت أمغار بدمنات وكذلك مقال "تأثير الأولياء في السكان: نموذج الصومعي". وارتكز منهجنا على المعاينة المنهجية وزيارة الأماكن المقدسة ومراقبة سلوكيات وتصرفات الزوار/ المؤمنين وتنظيم مقابلات مع بعضهم ثم جمع روايات شفوية من أبناء المنطقة ومن يعرفونها.

وعلى اعتبار أن المكان المقدس هو التجسيد المجالي للمقدس أمام الإنسان فقد تمكنا خلال هذه التحريات من تكوين عينة من حوالي أربعين مكانا مقدسا جمعت بين تلك المرتبطة بالأولياء وأضرحتهم وتلك المعزولة والمستقلة بذاتها، وفرغنا المعطيات المتوفرة في جدول يتكون من ثماني خانات اهتمت بنوعية المكان والولي الذي يرتبط به واس

¹ - Le lieu saint serait donc le lieu où le divin se territorialise en se manifestant aux hommes.

م المكان المقدس ووصف له والوظائف التي يقوم بها والطقوس التي ترافق الزيارة ومدى نجاعة العلاج. وسنقسم الموضوع إلى أربعة عناصر:

1-تحديد الأصناف والأنواع

2-التسمية والارتباط بالأولياء

3-الوظائف

4-طقوس الزيارة: مغارة لالة توايا بأيت محمد وأغبالو أيت مظريف.

1-أصناف الأماكن المقدسة

نوع	منطقة	الولي	المكان المقدس	وصف المكان	وظائف	طقوس	نجاعة
بئرون الماء	تيموليلت	سيدي بوعلي	عين الرحمة	عين ماء باردة وعذبة	علاج الكواتر والبثور والبطن	- غسل المكان المريض - حمل للمرضى	شفاء
	آيت أم البخت بزاوية الشيخ	سيدي عبد الرحمن بو زيان	أغبالو نو كرام (عين المرابط)	عين ماء باردة وعذبة			
	أولاد مراح سيدي عيسى	سيدي محمد الضاوي	عين سيدي محمد الضاوي	عين ماء ثرارة وعذبة مجهزة بصهرجين للذكور والإناث وبها أسماك مقدسة	السحر (توكال) أمراض جلدية: حزاز وحكة وبهق وجذري وبوحمرون وجذام	الاغتسال	
	أسكار واويزغت	سيدي حساين أوتمة	أغبالو نواسكار	عين ماء ثرارة باردة	علاج العنوسة طلب زوج	ذبائح (تمغروست) وإعداد الكسكس إقامة ثلاث ليال اغتسال الفتيات	زواج الفتيات بسرعة
	أولاد عياد	مولاي بوحى	العين	عين ثرارة عذبة	علاج الأمراض الجلدية والباطنية	استحمام النساء	
	سيدي عيسى أولاد مراح	سيدي عيسى الررفوفي	العين الكبيرة	عين عذبة وباردة	أمراض عضوية: الحنكورة والولسيس وبومزوي والبثور	مزج الماء بتراب الولي (حناء)	
	آيت أمغار بدمنات	سيدي بولبخت	عين آيت أمغار	عين ماء باردة مجهزة	علاج النحس كلب الزواج	استحمام تعليق ملابس داخلية واغطية الرأس	

			بغرفتين للذكور والإناث			
	غسل العضو المريض وشرب الماء	علاج أمراض جلدية والحنجرة	عين ماء باردة وعذبة	عين لالة شافية	مولاي عبد الله بن عبد السلام بن مشيش	رفالة
	دخول على الأقدام -خلع الملابس في الداخل -ظلاء الرؤوس والأجساد بالحناء - الاعتسال جيدا - الانحناء إلى قاع الساقية وأخذ ما يصادف (قطعة شمع أو نقود أو حجر...) وبها يتنبا بالمستقبل -التخلص من الملابس الداخلية بتعليقها بشجرة كرم قرب الغار.	علاج العنوسة والعقم والنحس وكشف المذنبين (كل مسرف على نفسه يتعرض داخل الغار لمكروه)	جزء من قناة مائية حفرت في سفح الجبل (امتداد للعين)	تاركا أو قناة مائية تحت أرضية	سيدي سعيد أويوسف أحنصال	أيت مضريف بواوزغت
	شرب الماء	علاج الأمراض والعقم -الانجاب	عين ماء باردة كبيرة وغزيرة	عين ماء	عين فم أودي	فم أودي ببني ملال
	شرب ماء وابتلاع سمكة حية	علاج الأمراض والعقم -الانجاب	عين ماء باردة وعذبة بها سمك صغير	عين ماء	عين سيدي عبد الله	أفورار
	شرب وغسل	علاج الحساسية	عين ماء باردة	عين ماء	عين/أغبا لو وارننفع	زاوية الشيخ

		والربو والسحر وتصفية الكلى	وعذبة			
	شرب وغسل	علاج السعال والأمراض الجلدية	عين ماء باردة وعذبة	عين ماء	عوينت بكار	جاعة بوتغرار قرب أيت عتاب
	-استحمام في مغارة مجاورة تقديم تمر للحضور -إشعال الشموع -ترك غطاء الرأس	طرد النحس والزواج وجلب الرزق	عين ماء باردة وعذبة	عين ماء	عين تامدة	بزو
	-شرب -اغتسال -حمل الماء للأهل	-شفاء من التوكال -دفع النحس	عين ماء بارد عذب	عين ماء (ساقية آتية من الجبل)	سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي	إكرض بيني عياط
	استحمام وشرب الماء	علاج أمراض جلدية خاصة البرص	عين ماء بارد عذب مبنية ومغطاة بالأسمنت ومجهزة بأنابيب	أغبالو نسيدي عمرو	سيدي عمرو أوحي	قرية سيدي حساين بأغبالة
	استحمام النساء خاصة في الليالي القمرية	شفاء الأمراض الجلدية والعنوسة والخصوبة	عين صغيرة باردة وعذبة مجهزة بصهريجين للرجال والنساء	عين سيدي بويعقوب	سيدي بويعقوب	بني ملال
	استحمام النساء بمانها	شفاء من العقم والعنوسة	ساقية عليها طاحونة مائية	الطاحونة	أبو القاسم الصومعي	بني ملال
	-استحمام	-علاج	عين ماء	عين ماء	عين	بني ملال

			عذبة وغزيرة		تمكنونت		
	الرجال والأطفال والنساء في الصباح الباكر - ترك الملابس الداخلية وأغطية الرأس بعين المكان	العنوسة والعقم طرد النحس - علاج الجنون دفع الباطل - نصرة في المحاكم					
	شرب الماء -زيارة العرسان ليلة الزفاف	-علاج -تحقيق الخصوبة	عين ماء باردة كبيرة وغزيرة	عين ماء	عين أسردون	بني ملال	
	شرب الماء	علاج السعال	ماء دافئ قليل الملوحة	عين "كحب العواكة"	سيدي علي بن ميمون	حد البرادية	
	غسل بالماء	علاج الأمراض والسحر والنحس وجلب الحظ	ماء عذب بارد	بئر مولاي بوعنان	مولاي بوعنان	أولاد غنام بأيت عتاب	
	شرب الماء	علاج الأمراض الظاهرية والباطنية	ماء عذب	البئر	سيدي عبد العزیز الشرقاوي	وادي زم	
علاج ناجع	إنزال الطفل إلى المطمورة مقلوبا بمسكه من رجليه (ثلاث مرات)	علاج الرضع	حفرة دائرية داخل الضريح لها باب خشبي	المطمورة	مولاي بوحى	أولاد عياد	
	ثلاث مراحل: 1- إعداد أرغفة صغيرة بدون ملح توضع في أركان المغارة هدية للجنيات وإشعال شموع واستحمام وترك الملابس	علاج العقم والاجهاض - منح الطفل الذكر	مغارة بها ماء وجنية (لالة توايا أو لالة مسعودة)	مغارة	مغارة توايا (إيفري نتوايا)	أيت محمد بأزيلال	مركز

	في المغارة. 2- تقديم شاي للزوار وإشعال الشموع والاستحمام. 3- تقديم الذبيحة المنذورة (دم للجنيات) وإشعال الشموع وإعداد الكسكس لكل عابر هناك والاستحمام والدعاء						
	تجمل النساء بالحناء ونزع الملابس الداخلية وتركه هناك	علاج العكس وجلب الزوج	3 مغارات صغيرة	مغارات تعبد الولي	مولاي بوزكري	أولاد علي الواد	
	خلع الملابس الداخلية وتركها رش ماء الورد والحناء عند العتبة	الزواج الخصوبة	صخرتان كبيرتان عالتان تحتهما كهف	تشنويين (التوأم)	تشنويين (التوأم)	ضواحي القصيبة	
	إشعال شموع ودعاء	منح الأولاد وعلاج العقم	مغارات	مغارات بحيرة تامدا إزكراون		بزو	
		بركة	صخرة الولي في جبل غنين	الحجرة البيضاء	سيدي بو علي	تيموليلت	
شفاء رهين بعدم التأدي بشوك السدر المنتشر فوقه	مسح الأجسام بعد لمسه ونوم فوقه وتمرغ		كومة من الأحجار الصغيرة من ترصيف الأنسان	كركور الحجر	سيدي محمد الضاوي	سيدي عيسى أولاد مراح	4.
	-موسم أواخر مارس لمدة	مكان صلح وتعاهد قبائل	كومة من الأحجار	كركور العهد	ضريح مجهول	دوار أولاد يعلى	

	بجماعة أهل مربع					بنى شكدا (14ق)	أربعة أيام حضرة وجدبة ذبح ثور -هدايا من الزوار
	أيت كيرت بأيت عتاب	سيدي عبد الرحيم	الحجرة (تفيلت)	صخرة متوسطة الحجم وملساء	كشف الكذب -عقوق الوالدين -علاج السحر	ازلاق الزائر فوقها على ظهره ورأسه موجه نحو الأسفل فإن كان عاقا تمسكه في الوسط ولا تتركه إلا بعد استشفاع الحاضرين (صلاة على النبي وزغاريد النساء)	
	وادي زم	سيدي عبد العزیز الشرقاوي	الحوش	حجر دائري الشكل بقطر نصف متر تقريبا	علاج بثور الأطفال	خلط ترابه بماء البئر	
بجماعة	أولاد مراح سيدي عيسى	سيدي محمد الضاوي	سدر التمانم	شجرة سدر ضخمة مثمرة (نبق)		ترك ملابس داخلية والعدة والشعر وقيود البهائم وقشور بيض...	
	سيدي عيسى أولاد مراح	سيدي عيسى الرفروفي	الشجرة	شجرة السدر	علاج النحس	وضع تمانم وملابس داخلية عليها	
	أيت أمغار بدمنات	سيدي بولبخت	شجرة النور	شجرة زيتون مانلة	علاج النحس	تعليق ملابس داخلية واغطية الرأس	
	أولاد غنام بأيت عتاب	مولاي بوعنان	الشجرة	شجرة السدر	علاج السحر والنحس والتابعة وجلب الحظ	تعليق ملابس خاصة الداخلية	
							يغتسل بماء بئر مولاي بوعنان قبل تعليق

الملابس						
	تعليق ملابس الزائرات فوقها	علاج العقم	نبته شوكية خضراء	نبته الزقوم (تيكويت)	سيدي عبد الرحيم	أيت كيرت بأيت عتاب
يتم التعليق بعد الاغتسال بماء عين لالة شافية	تعليق ملابس الزائرات فوقها	زواج وعقم وإبعاد "التابعة"	شجرة سدر	شجرة بجانب قبر الولي	مولاي عبد الله بن عبد السلام بن مشيش	رفالة
	تعليق ملابس وربطات الشعر	علاج النحس والسحر وجلب الحظ	شجرة سدر	الشجرة	سيدي عبد العزيز الشرقاوي	وادي زم
	إحضار الأطفال إلى الحوش يوم فطامهم وظلهم بالحناء وكسر أدوات الرضاعة فوق الحوش	الخصوبة وعلاج النحس ومساعدة على فطام الأطفال	قبر مهمل محاط بأحجار كلس كبيرة	العزويات	سيدي علي بن ميمون	حد البرادية
	وضوء وصلاة بها وتكميل لزيارة الولي	بركة الشيخ	حوش من الحجارة تتوسطه شجرة سدر	دار العابدين في قمة الجبل (خلوة الولي)	سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي	إكرض بني عياط

الأماكن المقدسة في جهة بني ملال/خنيفرة

يظهر من الجدول أن الأماكن المقدسة بتادلة وأزيلال تنقسم إلى خمسة أصناف وهي: العيون والمغارات والأحجار والأشجار والخلوات. ويلاحظ أن أغلب هذه الأماكن طبيعية وليس للإنسان دور في تكوينها إذ اكتفى فقط ببعض التعديلات البسيطة الهادفة إلى تنظيمها، عدا الصنف الأخير الذي يرتبط بوجود الأولياء فهو من صنع الإنسان وخلقه.

يضم الصنف الأول عيون الماء الطبيعية وهي خاصة تميز المنطقة بحكم طبيعة صخورها الكلسية. وينتشر تقديسها في العالم كله وعبر القرون. وترمز إلى الحياة والأمومة والقوة الروحية والحياة الداخلية. أما الماء الذي يعتبر محور وجودها فهو العنصر الموحد بين الأرض والسماء لأنه يمثل دم الرب وبذرة الخصوبة. وتنسب للعيون فضائل العلاج عند كل

الشعوب، وتحظى بالحماية حيث يمنع تدنيسها أو قطع فروع الأشجار التي تظلمها². وتهيمن على أكثر من نصف الأماكن المقدسة. وتنتشر داخل الجبل وعلى طول الدير وفي وسط السهل مما يعني تغطيتها لكل المجال. وهي في معظمها عيون غزيرة مرتفعة الصبيب باردة وعذبة توفر ماء الشرب والسقي للسكان وماشيتهم ولباقي المخلوقات بالمنطقة. والعيون تحمل خاصيتين مهمتين: الربط بين باطن الأرض وسطحها/عالمي الجن والأنس مما يمنحها القدرة على الوساطة بين العالمين وسكانهما، والحيوية المستمرة والقدرة على التجدد وتصفية الذات بعد كل تعكر، ومنح الحياة لكل المخلوقات بتوفير الماء الذي يخصب الأرض، لذلك فهي قادرة أيضا على تخصيص البشر.

ويلاحظ من خلال تسمياتها أن أغلبها مستقلة بتسميتها إذ تنسب إلى المنطقة التي توجد بها (أغبالو نواسكار) أو إلى من يسكن بها أو يرتادها أو أسطورة مرتبطة بها (عين تامكونت-عين أسردون) أو تحدد بحجمها (العين الكبيرة) أو وظيفتها (الطاحونة- تاركا)، بينما تنسب

أخرى إلى أولياء توجد قرب أضرحتهم (عين الرحمة لسيدي بو علي بتيموليلت- أغبالو نوكرام بأيت أم البخت بزاوية الشيخ- عين أيت أمغار بدمنات- عين سيدي بويعقوب- عين سيدي محمد الضاوي بسيدي عيسى - عين لالة شافية برفالة). ولاحظنا أن كثيرا من هذه العيون

قد ربطت بسواقي للقيام بوظيفتها الاجتماعية والاقتصادية مما يغطي على دورها المقدس والعلاجي أحيانا، بينما قلة منها جهزت لتقوم بهذا الدور بشكل بارز حيث بنيت عليها صهاريج وغرف للاغتسال وتحقيق رغبات زوارها القدسية، ونجد هذا الأمر بالخصوص

في المراكز الحضرية والدير أكثر من المناطق الجبلية. ومن العيون التي جهزت نذكر عين سيدي محمد الضاوي بسيدي عيسى (صهريجان: واحد للذكور وآخر للإناث) وعين أيت أمغار بدمنات (غرفتان: واحدة للذكور وأخرى للإناث) وعين سيدي بويعقوب ببني ملال (صهريجان واحد للذكور وآخر للإناث). وفي بعض الأحيان استغل السكان كهوفا مجاورة للاستحمام بها وتوفير الخصوصية للزوار (عين تامدة بيزو).

عيون بادرة في كل المجال تجمع بين الوظيفة الاقتصادية/الاجتماعية والوظيفة الدينية القدسية.

² - CHEVALIER J. & GHEERBRANT Alain, dictionnaire des symboles, éd. Jupiter, Paris, 1982, pp.903-904.



عين الرحمة بأيت سيدي علي

عين سيدي محمد الغريب بسيدي عيسى

ويتكون الصنف الثاني من المغارات، هذه الغيران التي تذهب عميقا في الأرض محددة أحيانا وغير محددة أحيانا أخرى. وتحمل عبر العالم والزمان رمزية خاصة، فهي ترمز إلى رحم الأم والعودة إلى الأصول والولادة الجديدة والإدماج، وهي مسكن للعفاريات وصورة للكون (قبة السماء والأرض) ودخولها عودة إلى الأصول ومرور من الأرض إلى السماء أو العكس³. وهذه تصورات موجودة في المنطقة فمغارة لالة توايا أو لالة مسعودة بأيت محمد مسكن للجنية لالة توايا، ودخولها يمكن من الاتصال بها والتوسل إليها للتوقف عن الإذابة والابتعاد عن المتوسل ومن يهمله أمرهم. ولذلك سنلاحظ فيما بعد أن الطقوس الممارسة كلها تسير في اتجاه إرضاء ساكنيها. وقد تعرفنا على بعض المغارات الحقيقية (مغارة توايا بأيت محمد - مغارات مولاي بوزكري بأولاد علي الواد- تشنيوين بالقصيبة-مغارات تامدا إزكراون ببزو⁴) أو ما يحيل على المغارة مثل مطمورة مولاي بوجي بأولاد عياد، فهي تحمل نفس خصوصية الدخول إلى أعماق الأرض والارتباط بعالم الجن والأرواح.

³ - CHEVALIER , op. cit. pp.180-183.

⁴ - BASSET H., le culte des grottes au Maroc, Alger, 1920, p.90.-



مغارة لالة توايا بأيت محمد

مغارة مولاي بوزكري بأولاد علي الواد

والصنف الثالث، يضم صخرات إما جلاميد كبيرة أو أحجار صغيرة مرتبة من قبل الإنسان على شكل كومة هرمية. فالجلمود الأول وهي حجرة بيضاء ارتبطت قدسيتها باختيار الولي سيدي بوعلي؛ بنواحي تيموليت بمجال أيت بوزيد، الجلوس عليها فحصلت على البركة وصارت مقصد الزوار. والثاني حجر متوسط الحجم بأيت كيرت وهو نفس مجال أيت بوزيد وهو حجر مقدس استمد قدسيته من وظيفة التنبؤ التي يقوم بها. وهذا ما يجعلنا نشك في كون الحجر الأول قد ارتبطت بركته بالتقاليد القبلية الصنهاجية. والعنصر الثالث يهم حوش سيدي عبد العزيز الشرقاوي بوادي زم حيث وضع حجر دائري قطره نصف متر ويستخدم لعلاج الأطفال من البثور. والعنصر الرابع هو الكركور⁵ (كومة حجر مقدسة تتكون عن طريق وضع المارة حصى صغيرة بشكل مستمر في مكان يعتبرونه مقدسا). وقد وجدنا كركورين وكلاهما موجود بالسهل. ويوجد الأول بقرب ضريح سيدي محمد الضاوي بسيدي عيسى

⁵ - خصص له إدمون دوتي مجالا مهما في كتابه "مراكش" وحدد فيه أنواع الكراكير ووظائفها في مناطق مختلفة من المغرب والجزائر. وحسب تحرياته فالمغاربة يستخدمون كلمتي "الكركور" و"الرجم" للتعبير عن نفس الشيء، وهوما نؤكد من خلال تحرياتنا في واحة درعة. والكركور يشير إلى معنى لغوي عادي بالإشارة إلى كومة حجر فقط (الحجر المجموع في الحقل بعد عدنه) أو يحمل دلالة رمزية دنيوية أو دينية. ففي المعنى الدنيوي فهو قد يستعمل للتواصل بين شخصين مرا بمكان واحد في وقتين مختلفين أو تحديد موقع بئر أو اتجاه طريق أو التحذير من دخول مجال (مرعى- شجرة مثمرة) أو حدود قبيلة أو تخليد حدث مهم أو اغتيال رجل، أما في المعنى الديني فهو يدل على حدود حرم ولي مشهور أو المكان الذي تبدأ فيه حمايته لزواره في الطريق وقد تظهر قبته من هناك أو لا تظهر، أو هو قبر رجل غريب. ويضيف كل عابر حجرا إليه إما لرجم الروح التي تسكنه ومنع إذايتها للأحياء أو تبركا بالولي واستشهادا على زيارته ودخول مقامه. Marrakech, Paris, 1951, pp.57-69.

أولاد مراح ويحمل قدسية ويرتاده الناس والثاني بدوار أولاد يعلى بجماعة أهل مربع ويسمى كركور العهد ويقام عنده موسم سنوي في أواخر مارس تجتمع به قبائل بني شكдал ومن يجاورهم لتقديم ثور/قربان والجذبة وتقديم الهدايا للتبرك.

ويهم الصنف الرابع الأشجار، وهي قديمة وموجودة في كل الحضارات وتجذب الاحترام بفضل خصائصها المتناقضة فهي قبيحة وصامتة وجليلة ومعمرة ومفيدة، وعادة ما تحظى بالتقديس الشجرة الأكثر هيمنة في المنطقة المعنية. وتعتبر الشجرة محور العالم وقنطرة بين السماء والأرض ورمز التجدد ودورة الحياة التي لا تتوقف⁶. ويلاحظ أن شجرة السدر تحظى باحترام وتقديس كبير في معظم المناطق التي توجد بها خاصة في السهل والدير ولا نجد أي شجرة أخرى تنافسها. ويمكن ربط هذا التقديس بكونها الشجرة الوحيدة المنتشرة في هذه المناطق وكونها؛ وخاصة ثمارها (النبق)، تحمل مزايا طبية كثيرة عرفت منذ العصر الوسيط⁷، وكذلك لذكرها في القرآن⁸ ثم خاصيتها كشجرة كثيفة الفروع وشوكية ومنتحلة للجفاف وقادرة على الدفاع والحماية ومفضلة عند المتصوفة⁹. أما في المناطق الجبلية فوجدنا شجرة زيتون في مقام سيدي بولبخت في أيت أمغار بدمنات وترمز هذه الشجرة عبر العالم إلى الجزاء والتطهير والقوة والسلام والنصر والخصوبة والنور والإنسان الكوني¹⁰، ونبته الزقوم في أيت كيرت بأيت عتاب وهي تشبه إلى حد ما شجرة السدر في بعض خصوصياتها وشجرة التين في أغبالو نايت مظريف. وهنا يظهر أن الشجرة أو النبتة المهيمنة في المنطقة تتحمل هذا العبء وتلعب دور القدسية والتوسط في حماية الإنسان من الجن وتدخلاته.

⁶ - CHEVALIER, op. cit. pp.62-68.

⁷ - ورد الحديث عنها في كرامة لأحد المتصوفة كعلاج للإسهال المزمن، انظر ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، مطبعة أكسال، الرباط، 1965.

⁸ - ورد ذكرها في سور الواقعة وسبا والنجم.

⁹ - CHEVALIER, op. cit. pp.291-292.

¹⁰ - Ibid, pp.699-700.



BISMILLAH



شجرة السدر وثمارها ومشتقاتها

أخيرا وجدنا حالة تتعلق بخلوة الشيخ التي يتعبد فيها منعزلا وتخص خلوة سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي بأكرط فوق قمة جبل، وهي حوش صغير تتوسطه شجرة سدر، وعلينا أن نلاحظ أن الشجرة المباركة التي أشرنا إليها أعلاه حاضرة، مما يجعلنا نشك في أن تكون هي من يجلب الزوار وليست بركة مكان تعبد الولي. وتتنطبق هذه الأمور أيضا على بعض المغارات التي يقصدها الناس مبررين ذلك بكونها خلوة للولي (مغارة مولاي بوزكري بأولاد علي الواد).

إن الأماكن المقدسة بالمنطقة هي في مجملها طبيعية: عيون ومغارات وأشجار وصخور، وبعيدة عن تدخل الإنسان. وتتميز بربطها بين باطن الأرض وسطحها (عالم الظلام والجن والأرواح وعالم النور والإنسان)، وكل لجوء إليها يهدف إلى التقريب بين العنصرين وخلق تصالح وهدنة بينهما لتحقيق غاية الخلاص والشفاء كما سنبين لاحقا.

2- التسمية والارتباط بالأولياء

يلاحظ أن هذه الأماكن المقدسة تحمل أسماء تربطها بالأولياء مباشرة؛ لكن هذه الحالة لا تمثل إلا نسبة ضعيفة (الربع فقط = 7 حالات)، أو ترتبط بها ضمنا مادامت موجودة قربها وفي مجالها، لذلك فكل من يقصدها يتحرك بنية زيارة شيء يحمل بركة الولي وينتظر تأثيره. وي طرح هذا الارتباط إشكالا كبيرا.

فكل الأماكن المقدسة عدا الخلوة المبنية (خلوة سيدي علي بن إبراهيم) قديمة وتاريخية وسبقت في وجودها هؤلاء الأولياء بآلاف السنين، فكيف تم الربط بينهما؟

لفهم هذا الأمر يجب أن نستحضر العلاقة بين المقدسات والديانات المتعاقبة، فهي علاقة مبنية على الاحترام والتنافس ومحاولات الصمود وطمس معالم المقدس السابق وتعويضها بطقوس جديدة. ويفترض أولا، أن استقرار الأولياء بهذه الأماكن جاء بعد أن شاع أمرها وصارت مرتادة من قبل الساكنة، ولأن طريقة تقديسها تحمل طابعا وثنيا وتستحضر أرواحا وجنا، فإن الولي سيعمل على تغيير هذا التصور وتحويله لصالحه بربطه بالإسلام وببركته مستفيدا من هذا التراكم القدسي واعتياد ارتياده من قبل السكان. وهو بذلك يحقق هدفين في نفس الوقت: تطهير المنطقة من الشرك وطمس معالم المقدس السابق وتحويل السمعة القدسية لصالحه مما يضمن له ولاء هؤلاء الزبناء القدامى. وثانيا، إن الساكنة التي ألقت تقديس هذه العناصر وأصبحت جزءا من حياتها سيصعب عليها التخلي عنها بسهولة، لذلك تحايلت الذاكرة الجمعية على الإسلام وممثله الولي فأطلقت اسم الولي على المقدس السابق دون أن تغير سلوكياتها وممارساتها القديمة. وثالثا، إن هذه الأماكن لم تكن مقدسة في بداية الأمر، ولكن إقبال الناس على زيارة الولي ونظرتهم الشمولية التي تقتضي أن كل شيء يوجد في حرمه مقدس جعلهم؛ مع مرور الوقت، يدخلون هذه الأشياء ضمن المقدسات، خاصة وأنها تدخل ضمن الأنواع التي ألقت تقديسها في أماكن أخرى.

إذن فالترابط بين هذه المقدسات جاء نتيجة علاقة الصراع الدائم بين المقدسات والديانات المتعاقبة، ونتيجة لمقاومة الجماعات السكانية ومحاولة الحفاظ على موروثاتها وعاداتها لذلك تحايلت وغيرت الأسماء دون المضامين، ونتيجة حماس وعمق إيمان الزوار الذين يحاولون تقديس كل ما يرتبط بالولي وحرمة.

3-وظائف الأماكن المقدسة

النوع	الوظيفة	الطقوس
العيون	طرد النحس الزواج -الانجاب - علاج الجنون والسحر الأمراض	الاغتسال بماء العين وشربه -ترك الملابس الداخلية وأغطية الرأس -تقديم الطعام للحضور
المغارات	طرد النحس -الزواج -علاج العقم والاجهاض -منح الطفل الذكر - علاج أمراض الأطفال كشف الكذب والانحراف -تنبؤ بالمستقبل	الاستحمام بماء المغارة - تقديم طعام دون ملح ودم الذبيحة للجنية - إشعال الشموع - إطعام المارة - الدعاء- إنزال الطفل مقلوبا إلى داخل المغارة
الأشجار	-طرد النحس -جلب الحظ -علاج السحر -تنمية القطيع.	ترك ملابس داخلية وأغطية الرأس وخصلات شعر - وضع تمانم وقشور بيض وقيود البهائم ...
الأحجار	جلب بركة الولي -كشف الكذب وعقوق الوالدين -علاج السحر - علاج بثور الأطفال	- تمدد فوق الصخرة والتمرغ فوقها والانزلاق عليها بشكل معكوس (الرأس نحو الأسفل) - مسح الأعضاء المريضة باليد بعد لمس الصخرة

وظائف الأماكن المقدسة

يحدد هذا الجدول وظائف الأماكن المقدسة التي سنعمل على عرضها حسب الأصناف قبل أن نضع بعض الخلاصات والاستنتاجات.

إذا بدأنا بالعيون فالجدول يظهر أن السكان يقصدونها لتحقيق بعض الأهداف تتمحور حول عنصرين اثنين: الخصوبة وعلاج الأمراض العضوية. فبالنسبة لعنصر الخصوبة فالعيون

تقصد لطرده النحس والحصول على زوج (خاصة بالنساء) والانجاب (علاج العقم)، فهي هنا تقصد للبحث عن الحياة والاستمرار للشخص والجماعة التي ينتمي إليها. أما بالنسبة للعلاج فهي تعالج الجنون والسحر وآلام البطن والأمراض الجلدية والحنجرة، وبصفة عامة كل أنواع الأمراض. ويلاحظ أن هذه الوظيفة منتشرة في سهل تادلة والدير أما في الجبل فلا نجد إلا حالة واحدة وهي حالة "عين أيت أمغار" بدمنات. وقد جهزت العيون بصهاريج خاصة للعلاج تفصل بين الرجال والنساء في عين سيدي بويعقوب ببني ملال وعين سيدي محمد الضاوي بسيدي عيسى أولاد مراح (توجد أسماك مقدسة في الصهريجين تنقي القروح) وعين أيت أمغار بدمنات. ونعتقد أن هذا الاهتمام بعلاج الجلد قد تطور انطلاقاً من العهد الموحد عندما انتشر العلاج بماء الحمات بشكل واسع واشتهرت بالخصوص حامة مولاي يعقوب فبدأ الناس يبحثون عن العلاج في العيون ومنها عين أيت أمغار بدمنات مشبهين لها بعين مولاي يعقوب بل يقولون إنها أفضل منها¹¹.

يقوم الزوار بمجموعة من الممارسات منها: الاغتسال بماء العين وحده أو يخلطونه بالحناء (تراب قبر الولي - أو نبتة الحناء) بشكل كامل أو جزئي (غسل العضو المريض) وشرب الماء في عين المكان أو حمله للمرضى وترك الملابس الداخلية وأغطية الرأس معلقة قرب العين وتقديم الطعام للحضور واختيار الليالي المقمرة للاستحمام والمبيت لثلاث ليال قرب العين.

فالعيون تمنح الخصوبة وتعالج الأمراض العضوية خاصة الجلدية شريطة الالتزام بمجموعة من الطقوس.

وبعدها يأتي دور المغارات، فالجدول يبين أنها مرتادة بدورها لتحقيق الخصوبة والعلاج من الأمراض، فهي تتردد النحس وتجلب الزوج وتعالج العقم والاجهاض وتمنح الطفل الذكر وتعالج أمراض الأطفال وخاصة كثرة البكاء. وهي بذلك لا تختلف عن سابقتها في منح الحياة والحفاظ عليها. ويعتمد العلاج على الاستحمام بماء المغارة وتقديم طعام دون ملح ودم الذبيحة للجنية وإشعال الشموع وإطعام المارة والدعاء وإنزال الطفل مقلوبا إلى داخل المغارة ثلاث مرات متتالية.

11- انظر كتابنا "الموقف من المرض، مطبعة عين أسردون، بني ملال، 2007، ومقالنا "المكان المقدس بين المقاومة والصمود" مجلة أنوار، عدد5، 2016، ص.

تقصد المغارات لتحقيق الخصوبة والحفاظ عليها وفق طقوس وثنائية تستحضر الجن والأرواح.

وتختص الأحجار بجلب بركة الولي وكشف الكذب وعقوق الوالدين (تفليت سيدي عبد الرحيم بأيت كيرت) وعلاج السحر وعلاج بثور الأطفال. وهي هنا تمس عنصرا مهما جدا في حياة الجماعات القبلية وهو احترام إرادة الكبار (الوالدين) والتحكيم بين أفراد الجماعة حفاظا على تماسكها، وهذه الوظيفة واسعة الانتشار في المغرب (اشتهر بعض الأولياء بكون الناس يقصدونهم للتناصف عن طريق القسم فوق قبورهم، فكان كل من اتهم ظلما يهدد غريمه بجره للقسم في الضريح).

ويقوم العلاج على التمدد فوق الصخرة والتمرغ فوقها والانزلاق عليها بشكل معكوس (الرأس نحو الأسفل) ومسح الأعضاء المريضة باليد بعد لمس الصخرة. ويحضر العملية جمهور يشهد على العملية ويساعد المذنب على التخلص من ورطته (الصلاة على النبي جماعة)، ويبدو أنه هو من يعطيها قيمتها بالتأثير في الممتحن وسلوكاته. ويشبه طقس المرور فوق الصخرة في أيت كيرت بأيت اعتاب وإمساكها بالمذنب المرور من مغارات ضيقة في بعض المناطق وكون المذنبين يعلقون فيها ويحتاجون مساعدة الآخرين للخروج من ورطتهم (مولاي بوعزة بتاغيا).

وتختص الأشجار بوظيفة علاج وطرده النحس و جلب الحظ وعلاج السحر وتنمية القطيع. وهذا تخصص أضيق من الأصناف السابقة ويركز بالخصوص على الخصوبة للإنسان والحيوان على حد سواء. وتقوم بهذا الدور كما سبقت؛ الإشارة أعلاه، شجرة السدر أساسا. وتشمل الممارسة ترك ملابس داخلية وأغطية الرأس وخصلات شعر وتمائم وقشور بيض وقيود البهائم وغيرها فوق أو عند قدم الشجرة.

يلاحظ في الأخير أن كل أصناف الأماكن المقدسة تشترك في وظيفتين أساسيتين وهما: تحقيق الخصوبة (زواج-إنجاب-إنجاب طفل ذكر) وهو ما يعني منح الحياة لمن يزورها، والحفاظ على الحياة بعلاج الأمراض الخفية (سحر-جنون) أو الظاهرة (أمراض جلدية متنوعة). وبذلك تكون قد منحت سلطة كبيرة توافق سلطة الخالق. وهذا ليس بغريب عن المنطقة فدراستنا لوظائف الأولياء توصلت إلى نفس النتيجة¹². وبذلك يمكن الحديث عن

¹² - مقالنا: تأثير الأولياء في السكان: أبو القاسم الصومعي ببني ملال، مجلة كلية الآداب ببني ملال، عدد 16، 2015، ص. (47-62).

عقلية مشتركة نحو المقدس، فالسكان يرون في المقدس (ولي أو مكان مقدس) ملجأهم في كل مشاكلهم وهو ملزم وقادر على حلها. وتدعم هذا التوجه الطقوس الممارسة فهي لا تخرج عن الاغتسال وشرب الماء وتقديم الذبيحة والتمرغ على المقدس وترك بعض متعلقات المريض كشاهد إثبات ومركز نحس في عين المكان. ولا يجب أن ننسى أن هناك ميلا إلى السرية أثناء الممارسة بالتستر بظلام الليل أو سواد المغارات هروبا من الفضول وتقربا إلى من يعتقد أنه مصدر الشر والخير على حد سواء (الجن)، وفي هذا الصدد نجد نصا معبرا يعود إلى القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر الميلادي يتحدث عن ذلك بوضوح، وجاء فيه: "شكا أهل بلدنا [مراكش] كثرة الأمراض، فدعوت جماعة الجن إلى أبي محمد عبد الخالق، فلما أبصرني أبو محمد عبد الخالق تبسم، وقال: سبقوك يا أبا تبرنوست! وكنت قد لبست برنوسا. فسمعت كلاما كثيرا، فقلت كيف أخاصم قوما لا أراهم؟ فليقدموا إلي واحدا منهم يقوم بحجتهم، فظهر لي واحد منهم (...). فقلت لأبي محمد إن قوم هذا أضروا بأهل بلدنا فكلهم مرضى. فقال لأبي محمد: ما أضررنا أحدا وما مرضوا إلا من تغيير هواء بلدهم وانصرفنا"¹³.

4- طقوس الزيارة من خلال نموذجين

سنخصص الحديث في البداية لطقس زيارة أغبالو نايت مظريف التابع لسيدي سعيد أو يوسف الحنصالي قرب ووزغت. وهذا طقس مشترك بين الرجال والنساء مع هيمنة للنساء. فزيارة العين/المغارة وتحقيق الغاية لا يتحقق إلا بالالتزام بطقوس الزيارة بشكل دقيق. وتتكون الطقوس من:

1-الدخول مشيا على الأقدام

2-خلع الملابس كاملة داخل القناة

3-طلاء الرؤوس والأجساد بالحناء

4-الاجتسال الجيد

¹³ - التادلي، التشوف، ص.293.

5-الانحناء إلى قاع الساقية وأخذ أي شيء يصادف الزائر (قطعة شمع أو نقود أو حجر...) وبها يتنبا بمستقبله.

6-التخلص من الملابس الداخلية بتعليقها بشجرة كرم قرب مدخل الغار.

وبذلك تنتهي الزيارة ويغادر الزائر/ المريض في انتظار تحقق غايته والعودة للوفاء بنذره الذي نذره عند الولي وعادة ما يكون دما (دجاج في الغالب-شاة)، وهنا يلاحظ التداخل بين الولي والعين كمظهر للاندماج بين العنصرين.

والطقس الثاني يهم مغارة توايا (إفري نتوايا) بأيت محمد في عمق الجبل. وهي مجال نسائي بامتياز وطقوسه خاصة بهن. وتحفظ الذاكرة الجمعية بأسطورة تبرر الإقبال عليها وزيارتها. فحسب ما هو متداول فالمغارة تسكنها جنية تدعى لالة توايا أو لالة مسعودة التي خرجت عصر ذات يوم فوجدت امرأة تغسل ثيابا بالماء الذي يخرج من المغارة، فغضبت غضبا شديدا وطار الشرر من عينيها فذعرة المرأة وتوسلت إليها كثيرا وبتذلل كي لا تؤذيها، لكن الجنية رفضت أن تصفح عنها، فارتمت عليها المرأة وجعلت ترضع من ثديها لذلك تراجعت الجنية عن عقابها وصرحت أنها لولا الحليب الذي شربته منها لعاقبتها ولرمتها إلى مكان بعيد جدا. ومنذ ذلك الحين صارت تحمي النساء وتساعدهن.

وتمر الزيارة بثلاثة مراحل تمتد على مدى أكثر من عشرين يوما.

1-الزيارة الأولى:

وتشمل إعداد أرغفة خبز صغيرة بدون ملح توضع في أركان المغارة هدية للجنية، وإشعال الشموع، ونزع الملابس كاملة، والاستحمام بماء المغارة، وترك الملابس المنزوعة مبعثرة داخلها لأنها -كما يعتقد- تحمل النحس وإعادة ارتدائها ينذر باستمرار النحس أو تزايد، ونادرا ما يتجرأ أحد على أخذها عدا بعض المجانين الذين لا يعون الأمر.

2-الزيارة الثانية:

وتأتي بعد أيام (الغالب سبعة أيام) وتشمل تقديم شاي للزوار، وإشعال الشموع في المغارة، والاستحمام، والتخلص من الملابس الداخلية.

3-الزيارة الثالثة:

وتأتي بعد أيام من الثانية (الغالب سبعة أيام) وتشمل تقديم الذبيحة المنزورة (دم للجنية)، وإشعال الشموع في المغارة، وإعداد كسكس وتقديمه لكل عابر هناك، والاستحمام ثالثة، وترك الملابس الداخلية، ثم الدعاء.

بعد هذه الزيارات المتكررة يمكن للزائرة أن تتأكد من أن الجنية لالة توايا أو لالة مسعودة قد استجابت لطلبها وقبلت تقربها وعالجت مرضها.

تشابه بين الطقوس خاصة الاختباء والاستحمام وترك الملابس وتقديم الذبائح.

خاتمة

تنتشر الأماكن المقدسة في كل مناطق تادلة وأزيلال بدون فرق بين الجبل والدير والسهل. وتضم العيون والمغارات والأحجار والأشجار والخلوات، وإذا كان بعضها مستقلا فإن الأغلبية مرتبطة بأولياء تنسب إليهم بشكل صريح أو ضمني في إطار علاقة انتهائية ساهم الأولياء في حيواتهم أو أتباعهم من بعدهم والجماعات المحلية (القبائل) والزوار في خلقها، وحافظت للجميع على مصالحه: اتباع جاهزون وطمس ظاهري لمعلم وثني بالنسبة للولي وحفاظ على عادات وتقاليد ومعبودات محلية في حلة مختلفة بالنسبة للجماعات. وتشارك الأماكن المقدسة في قدرتها على تحقيق ثلاثة أشياء تصب في مبدأ الحياة على العموم: الخصوبة بكل مكوناتها وعلاج الأمراض ظاهرة وباطنة والتنبؤ بالمستقبل، وهي أمور تتقاسمها مع الأولياء. وتعتمد الطقوس عامة على الاغتسال بالماء وشربه والاحتكاك بالمقدس وترك بعض الآثار في عين المكان وتقديم الدم (الذبائح). ومرة أخرى فهي لا تختلف عما هو خاص بالأولياء. نخلص في آخر كلامنا إلى ان المقدس في المنطقة بشكله الصوفي والمكاني يتخذ نفس الصورة كدليل على تدخل الإنسان القوي في خلق مقدسه وفق حاجيات وشروط مسبقة.

